

ألفاظ الجموع ذات الوجدان

دراسة دلالية في لغة القرآن الكريم

بقلم

أ. الأخضر سعداني (**)



ملخص

يعالج هذا الموضوع أحد الجوانب الإعجازية في لغة القرآن الكريم، ألا وهو الاستخدام المناسب لألفاظ الجموع، بحيث ينوع الأسلوب القرآني في استعمالها طلباً لأغراض تتعلق بدقة التعبير عن العدد قلة أو كثرة، أو لأغراض تتجاوز العددية إلى إرادة معانٍ أخرى، يؤدي السياق أو المقام دوراً رئيسياً في تحديدها مثل تخصيص معنى المفرد، وإرادة المعنى العام أو الخاص له، ومعنى الاسمىة أو الوصفية، والتفرقة بين العاقل وغيره... وربما كان الغرض هو تلبية الجانب الجمالي والموسيقي للكلام.

مقدمة

يُرجع الجاحظ بلاغة الكتاب إلى مقدرتهم على الاختيار الحسن للألفاظ، ويضعهم في رتبة تسمو على رتبة الكثيرين من الخطباء والبلغاء، الأمر الذي يدل على أن اختيار الألفاظ عملية أصعب من جمعها ووصفها. ولذا كان دور الكاتب المقتدر يتطلب دراية ونفاذاً ونظراً أكبر من دور اللغوي الذي يجمع مفردات المعجم، ومن دور النحوي الذي يضع قواعد اللغة وأنظمة تراكيبيها.

وهذا الذي نوه به الجاحظ يذكرنا بأن نظم الكلام في حسنه وبلاغته، ومن ثم جودته وإعجازه لا بد أن يمر على محك صعب هو اختيار اللفظ المطابق للمعنى، والملائم للسياق. ولا شك أن اختيار التعبير القرآني لنوع أو وزن معين من الجموع الكثيرة، واستعماله في موقع بعينه

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب واللغات - جامعة الوادي.

(**) باحث في الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها - جامعة باتنة - الجزائر.

هو مظهر من مظاهر إعجازه الدلالي والجمالي.

ولما كانت الجموع في القرآن كثيرة ومتنوعة والدراسة لا تتسع لكل ذلك، ارتأينا أن نحدد مجال الدراسة فجعلناه يقتصر على معالجة الجموع ذات المفرد من لفظها، وهي جمع السلامة المذكر والمؤنث وجموع التكسير الدالة - من حيث صورتها - على القلة أو الكثرة أو كثرة الكثرة فيما يدعى جمع الجموع أو جمع الجمع. ولا يُعنى مجال الدراسة بالجموع التي اتفقت مفرداتها واختلفت معانيها مثل: أولاد، ولدان لأن مفرد الأولى ولد ومفرد الثانية وليد، ومثل جِداد وحُدود؛ لأن مفرد الأولى حديد(من الحدة)، ومفرد الثانية حدّ. كما يخرج من مضمار هذه الدراسة جموع لم تتنوع في الاستعمال في السياقات مثل: الأوتاد والأسفار والأزلام.

ونشير أيضا إلى أننا لا نروم استقصاء جميع الحالات التي عبّر فيها بلفظ الجمع في مقابل جمع آخر، بل كان منا الاقتصار على مثالين أو ثلاثة من القرآن لتجلية المقابلة الواحدة.

يشير الاستعمال اللغوي للقرآن فضول النفس الوثابة إلى معرفة الحقائق ودقائق المعاني الكامنة وراء ما يختاره من كلمات وصيغ وتراكيب وصور وغير ذلك من الأبنية الإفرادية والتركيبية. ومن مثا لا يابه لاستعمال صيغة الجمع تأتي على مبنى معين في سياق ما، ثم يستعمل مبنى ثان لهذا الجمع في سياق ثان، الظاهر فيه أنه شبيه بالأول نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٍ وَأَخْرَجَ يَابِسَاتٍ﴾^(٥) ؟

وإذا كان المساعد على الإثارة في هاتين الآيتين هو العدد المشترك "سبع" الذي جاء تمييزه في الأولى "سنابل" وفي الثانية "سنبلات"، فإن المثير قد يكون حاضرا بشكل آخر هو تنوع الجمع في السياق الواحد كما هو في قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضَضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِيَعُولِيَهُنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾^(٦)، حيث خالف بين الجمعيتين: "أبناء وبينين". وقد يخفى الباعث إلا على من تفتن إليه وهو منتشر بين السياقات المتباعدة.

ويجتهد هذا المقال في عرض مقابلات في صيغ الجموع استعملت هنا وهناك في عرض النص

القرآني، مستعينا بما أنجزته بحوث القدماء والمحدثين من علماء اللغة والتفسير.⁽⁴⁾ وقبل عرض نماذج قرآنية تجسد ظاهرة اختلاف صيغ الجموع للمفرد الواحد، وقبل بيان العلل الأسلوبية المرافقة لذلك التنوع، يجدر بنا تقديم تذكرة تعيد إلى الأذهان خلاصة ما قدمه علماء اللغة قديما وحديثا في مباحث الجموع.

استقر الدرس في العربية على أن ما يدل على ما فوق الاثنين، له أنواع يمكن إيجازها فيما يلي:

1. "الجمع: وهو ما يتناول جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم، وجمع التذكير المتفرع إلى جمع القلة، وجمع الكثرة*."

2. اسم الجمع: وهو نوعان:

أ- ما ليس على صيغة من صيغ جموع التذكير، وليس له واحد من لفظه مثل إبل وقوم وجيش.

ب- ما ليس على صيغة من صيغ جموع التذكير، وله واحد من لفظه، ولا يفرق بينه وبين واحده بالتاء ولا بالياء مثل صَحْبٍ وَرَكْبٍ وَطَيْرٍ.

3. اسم الجنس: وهو نوعان:

أ- اسم جنس جمعي وهو ما يطلق على القليل والكثير وله واحد من لفظه، ويفرق بينه وبين واحده بالتاء أو بالياء مثل تمر وتمرّة، وشجر وشجرة، وروم ورومي.

ب- اسم جنس إفرادي وهو ما يطلق على القليل والكثير وليس له واحد من لفظه مثل تراب وماء وعسل ولبن.⁽⁵⁾

4. جمع الجمع: مثل "أساور" جمعاً لـ "أسورة" التي هي جمع لـ "سوار"، و"أسارى" جمعاً لـ "أسرى" التي هي جمع لـ "أسير".⁽⁶⁾

هناك دواع فنية جمّة اقتضت وجود ظاهرة تنوع الجموع في الاستخدام القرآني، وقد يجتمع في الحالة الواحدة أكثر من داع أو سبب في جعل هذا التعبير يؤثر صيغة دون أخرى، وتعود كثير من الدواعي إلى ما يلي:

(1) الدلالة على القلة أو الكثرة:

أولاً- التعبير بجمع القلة مقابل جمع الكثرة:

01. ألوف وآلاف. وردت كلمة "ألوف" في قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ

دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴿٧﴾، ووردت كلمة "آلاف" في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبُكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ﴾ ﴿٨﴾.

عندما أراد الأسلوب القرآني التعبير عن القلة جاء بلفظ "آلاف" على زنة أفعال. ومن المعروف عند النحاة أن القاعدة في تمييز العدد من الثلاثة إلى العشرة أن يأتي جمع قلة. وأما "الوف" على وزن فُعُول فهو من أوزان الكثرة، والقاعدة عندهم أنه عدد من الأفراد بدايته الثلاثة ولا نهاية له. يقول القرطبي: الصحيح في عدد بني إسرائيل الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت أنهم زادوا على عشرة آلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ أَلُوفٌ﴾ وهو جمع الكثرة، ولا يقال في عشرة فما دونها أوف. ﴿٩﴾

02. فتية وفتيان: عبر القرآن الكريم بالأولى في سياق الحديث عن أصحاب الكهف، وكانوا قلة، قال عز من قائل: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ ﴿١٠﴾، وفي تفصيل قصتهم كرر نفس الجمع "فتية" فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ ﴿١١﴾. وقد اختلفت الظنون في تحديد عددهم، لكنها لم تتجاوز العدد المحصور بين الثلاثة والعشرة، ونقل القرآن عنهم هذا الاختلاف حيث قال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ﴿١٢﴾. وأما الجمع الثاني "فتيان" الوارد في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ ﴿١٣﴾، فقد استعمل للكثرة، أي عدد غير محدد من الفتية وهم رجال يوسف عليه السلام.

وقد يكون الفرق بين الجمعين لا علاقة له بالدلالة على العدد قلة ولا كثرة، وذلك حينما يُراد بالفتية معنى الصغار أو الأحداث، ويراد بالفتيان الذين بلغوا مبلغ الرجولة، وفي هذه الحال يراد بالاختلاف الصيغي بين الجمعين تخصيص معنى المفرد.

ولا شك أن اختلاف القراءة في هذا اللفظ دال على أن معنى القلة أو الكثرة غير ملحوظ، لعدم تعلق فائدة خاصة بكون الذين يضعون بضاعة إخوة يوسف عليه السلام في رحالهم قليلين أو كثيرين، فلقد قرأ معظم السبعة "لفتيته" في حين قرأها حمزة والكسائي وحفص عن عاصم "لفتيانه". ﴿١٤﴾

ثانياً- التعبير بالجمع في مقابل جمع الجمع:

ونعرض على سبيل المثال الجمعين "أسرى وأسارى"، قال عز من قائل: ﴿مَا كَانَ لِئَيْبَى أَنْ

يَكُونُ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُمَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾. وقال: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى فَادَّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (١٦).

لعل ذكر السياق الذي ترتبط به كل آية من هاتين يساعدنا على إدراك الفرق بين الجمعين المستعملين: جاءت آية الأنفال تعليقا على ما فعله المسلمون بعد انتصارهم في غزوة بدر، وقبولهم فداء الأسرى الذين لم يزيدوا آنذاك على السبعين. أما آية البقرة فقد وردت في سياق الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل ثم نقضوه وخرجوا عليه بأن قتلوا أنفسهم وأخرجوا فريقا منهم من ديارهم وقبلوا الفداء من الأسارى منهم.

واختلاف السياق الاجتماعي في كل من الموقفين اقتضى أن يستعمل لفظ "أسرى" الدال على الجمع في مقابل لفظ "أسارى" الدال على جمع الجمع لأنه خوطب به بنو إسرائيل خطابا عاما يشمل من يقعون في أسرهم على مر الأزمان (١٧).

وقد جاء في لسان العرب أن لفظ "أسرى" جمع لأسير، وأما "أسارى" فهو جمع لهذا الجمع (١٨).

ثالثا- التعبير بالجمع السالم مقابل جمع التكسير:

01. سنبلات وسنابل: استعمل القرآن جمع السلامة للتعبير به عن القلة في مقابل جمع التكسير للتعبير به عن الكثرة. ومن أمثلة ذلك: سنبلات وسنابل. قال عز من قائل: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَوَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٍ وَأَخْرَجَ يَابِسَاتٍ﴾ (١٩)، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُخْرِجَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠).

جمع السلامة لا يدل بصيغته على قلة أو كثرة إلا بمعونة السياق، والسياق المقالي في الآيتين يستعمل العدد "سبعة" الذي يأتي تمييزه جمع قلة حسب قواعد علم الصرف.

ويتعين معنى "السنبلات" في الآية الأولى بالقلة، بدليل تعبير يوسف عليه السلام للرؤيا حيث أول السنبلات السبع بالسنوات السبع، ثم تحققت نبوته كما تذكر التفسير وقصص الأنبياء. وهكذا يكون العدد مستعملا على الحقيقة ولا مجاز فيه، ويلزم من ذلك أن يكون الجمع "سنبلات" جمع سلامة دالا على القلة لا على الكثرة.

وأما الجمع "سنابل" في الآية الثانية فقد جاء في سياق الكلام عن فضل الله وكرمه بحيث

يضاعف الأجر أضعافاً للمحسنين، تصل بالعدد "سبعة" إلى سبعمائة ضعف، ولا يتوقف الأجر عند هذا الحد، بل "والله يضاعف لمن يشاء"، ولذا فإن العدد "سبعة" في سياق هذه الآية ليس له قيمته العددية الحقيقية، ولكنه كناية عن عدد كثير ومفتوح على المزيد من الكثرة، فناسب أن يكون تمييزه جمع كثرة، وهو من جموع التكسير.

02. عُرُفَاتٌ وَعُرْفٌ: قال عز وجل: ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ﴾⁽²¹⁾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾⁽²²⁾. وقعت آية سبأ في سياق يقضي بأن يكون جمع السلامة "غرفات" جمع قلة، لأن هذا المعنى يتلاءم والسياق السابق لها وهو قوله تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقرَّبكم عندنا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ هُم جَزَاءُ الصَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ﴾، ووجه الملازمة مع القلة أن الآية تتحدث عن الذين جمعوا الأولاد والأموال والعمل الصالح، وهؤلاء قلة بالقياس إلى سائر المؤمنين، لأن الأموال والأولاد يوردان إلى الغرور والبطر. وقلة فقط هم أولئك الذين ينعمون بالأموال فينفقونها فيما يرضي الله، ويحملون الأولاد على تعلم الخير والفقه في الدين والترشح للصلاح والطاعة.⁽²³⁾

وأما آية العنكبوت التي اشتملت على لفظ "غرف" فهي تتحدث عن مجرد الانتصاف بالإيمان والعمل الصالح، ولا شك أن المتصفين بذلك أكثر بكثير من الذين يجمعون الغنى والنفوذ والتقوى، ولذا ناسب هنا استخدام جمع التكسير الدال على الكثرة.

2) تخصيص معنى المفرد:

ورد في القرآن الكريم جموع لمفردات تنتمي إلى المشترك اللفظي، وهو المفردات التي يشترك في الواحد منها أكثر من معنى، كما ورد فيه ألفاظ تشترك في معناها العام، بينما تختلف فيما بينها في الدلالات الخاصة. ويفرق الاستعمال اللغوي الفصيح بين دلالات هذه الألفاظ عن طريق تنوع جموعها والمخالفة فيما بينها.

وإذا تأملنا الاستعمال القرآني في التفرقة بين معاني اللفظ المشترك ألفيناه دقيقاً يتوسل إلى ذلك بالسياق والجمع بتنوعاته. وفيما يلي تحليل لمثلين من الجموع المراد بها تخصيص معنى المفرد:

01. أعين وعيون: مفرد كل منهما "عين"، وهو من المشترك اللفظي. ورد في القرآن الكريم بمعنى آلة البصر في قوله عز وعلا: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾⁽²⁴⁾،

كما ورد في معنى "عين الماء" في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾⁽²⁵⁾.

وجاء جمعها في القرآن بصيغتين مختلفتين هما: "أَعْيُنٌ وَعُيُونٌ"، إذا تأملناهما اكتشفنا أن سر ذلك الاختلاف هو تخصيص كل جمع منهما لأحد المعنيين دون الآخر؛ قال تعالى: ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾⁽²⁶⁾، فجاءت "عين" في هذا الموضع بمعنى العين المبصرة. وقال: ﴿ جَنَّاتٍ وَعُيُونٌ ﴾⁽²⁷⁾، وأما ههنا فتدل على أنها عين الماء.

يقول الدكتور أحمد مختار عمر "...ولا يصح اعتبار "أعين" يراد بها القلة، "وعيون" يراد بها الكثرة، كما يقول النحاة؛ إذ لا يستصاغ معنى القلة في آيات مثل ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ [الأعراف: 116]. لأن معنى الكثرة هو الأنسب والأكثر ملاءمة للسياق هنا⁽²⁸⁾.

02. أشداءً وشداداً، من الألفاظ التي تشترك في معناها العام أي القوة، وتختلف فيما بينها في الدلالات الخاصة، ومفرد كل منهما "شديد" أي قوي، ولما كانت القوة معنوية أو مادية، حرص القرآن على التفرقة بين جمعي المعنيين بأن جعل الشدة المعنوية جمعها "أشداء"، والشدة المادية جمعها "شداد". قال سبحانه وتعالى: ﴿ محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشداءٌ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾⁽²⁹⁾، والشدة هنا معنوية تعني الغلظة والقسوة. وأما في قوله عز وجل: ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ ﴾⁽³⁰⁾ فالشدة مادية، أي شداد الأبدان وقيل غلاظ الأقوال شداد الأفعال⁽³¹⁾. وتسمي صيغتا الجمعين "أفعالاً وفِعَالٌ" إلى جموع الكثرة كما هو معلوم في كتب النحو، ولذا فإن استعمال أحدهما دون الآخر يجري لغرض غير القلة والكثرة.

(3) إرادة العموم والخصوص:

قد يستخدم القرآن الكريم صيغتين من الجموع للمفرد الواحد، وذلك بقصد التفرقة بين معنيي الجمعين بجعل أحدهما خاصاً والآخر عاماً، يشمل المعنى الخاص للمفرد ومعه غيره. ومن أمثلة العموم والخصوص:

01. أنفُسٌ ونفوس: كلاهما جمع "نفس"، والنفس تأتي في القرآن بمعنى أرواح الأشخاص أو دخالهم وبواطنهم، فتجمع على "نفوس"، وهذا هو المعنى الخاص، وهو قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾⁽³²⁾، وقوله: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾⁽³³⁾. وواضح من الآيتين أن لفظ "النفوس" استعمل بالمعنى الخاص أي دال على الجانب الروحي أو المعنوي في الإنسان.

وبناء على عملية استقراء تام لكلمة "أنفس" في القرآن الكريم قام بها الدكتور أحمد مختار عمر

في كتابه دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءته، فإن هذا الجمع يُستعمل في المعنى العام الذي يشمل المعنى الخاص السابق كما في قوله عز وعلا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾⁽³⁴⁾، كما يُستعمل في معنى الذوات والأشخاص. وهذا المعنى العام هو أكثر وروداً في القرآن الكريم⁽³⁵⁾، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾⁽³⁶⁾، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾⁽³⁷⁾. وبالتالي في الآيات السابقة المشتملة على الجمعين "نفوس وأنفس" نكتشف أن الجمعين جاءا في سياق الكثرة، وهذا يخالف قول النحاة في دلالة "الأنفس" على القلة.

02. ضعاف وضعفاء: استعمل التعبير القرآني كلمة "ضعاف" في قول الله عز وجل: ﴿وَلْيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾⁽³⁸⁾، والضعف المقصود في هذه الآية مادي وهو المعنى الخاص؛ لأن سياق الكلمة مرتبط بالمواريث والوصية.

كما استخدم الأسلوب القرآني كلمة "ضعفاء" شاملة معنى الضعف المادي السابق في قوله تعالى: ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾⁽³⁹⁾. واستعملها في معنى العجز أو الضعف الجسمي في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾⁽⁴⁰⁾. واستعملها أيضا في معنى القهر والتبعية في قوله تعالى: ﴿وَبَرُّوْا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا مِنْ عَدَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾⁽⁴¹⁾.

ويتضح من استخدامات كلمة "ضعفاء" أنها تحتوي المعنى الخاص الذي تؤديه كلمة "ضعاف" ومعه غيره من المعاني، ولذا فهي أعمُّ دلالة.

4) طلب معنى الاسمية أو الوصفية:

وقد تتعدد الجموع في الاستعمال القرآني ويراد بذلك معنى الاسمية في موضع والوصفية في موضع آخر، فيستخدم جمع التفسير للأول وجمع السلامة للثاني. ومن أمثلة ذلك من القرآن ما يلي:

01. ورد الجمع المكسر "رعاء" في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَانَسْتَقِي حَتَّى يَصْطُرَ الرَّعَاءُ﴾⁽⁴²⁾. ورعاء جمع راع لمن حرفته الرعي، وهو معنى اسمي.⁽⁴³⁾ وقال أيضا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾⁽⁴⁴⁾، وههنا جاء جمع السلامة "راعون" الدال على الصفة.

02. حَزَنَةٌ وحازنون: "الحزنة" جمع لحازن النار أو الجنة أي حارسها، وهو استعمال اسمي للفظ يجعله قريباً من أسماء الوظائف (كالْحَقْرَةَ والسدنة والسحرة)، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِيمُنُمْ﴾⁽⁴⁵⁾. وأما "الحازنون" فاستخدام للفظ الجمع يجعله قريباً من الصفات ويدل على الحدث؛ قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَقُّنَا كُنُوفَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾⁽⁴⁶⁾، فوقع الجمع خبراً مجروراً بالباء الزائدة، وتعلق به الجار والمجرور: لَهُ. وهذا التعلق دال على وصفية كلمة "خازنين" لأن الحجار والمجرور لا يتعلقان إلا بالفعل أو شبهه.

(5) تحقيق المواءمة اللفظية أو المعنوية:

قد يختار التعبير القرآني جمعاً ما في موقع ما بغرض تحقيق مبدأ المواءمة اللفظية والتحسين الكلامي، مثل:

01. أنبياء ونبين: جاء لفظ "أنبياء" في آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَهُمُ الْكُفَّارُ بَغَيْرِ حَقِّ﴾⁽⁴⁷⁾، وورد لفظ "النبين" في البقرة حيث قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾⁽⁴⁸⁾، كما ورد في آل عمران قوله عز وجل: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقِّ﴾⁽⁴⁹⁾. قال الكرمانى: «وجمع النبيين جمع السلامة لموافقة ما بعده من جمعي السلامة وهو: النبيين - الصابئين، وكذلك في آل عمران: إن الذين - وناصرين - ومعرضون، بخلاف الأنبياء»⁽⁵⁰⁾ في الموضع الآخر من آل عمران، حيث تتلاءم والجمع أغنياء في قوله عز وعلا: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْكُفَّارُ بَغَيْرِ حَقِّ﴾.

02. سجد وسجود: استخدم القرآن اللفظين مُريداً بالأول الجانب الحسي الخاص وهو وضع الجبهة على الأرض، وبالثاني الجانبين الحسي والمعنوي أي الخشوع في الصلاة، ولذا فهو أعم من الأول في الدلالة. ويتضح هذان الاستخدامان من قوله عز وجل: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾⁽⁵¹⁾، وقوله: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرْنَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁽⁵²⁾.

ولسنا نريد الوقوف عند توضيح هذا المقصد، لأنه سبق مثله تحت عنوان "إرادة العموم والخصوص"، ولكننا نريد إيضاح فائدة أسلوبية أخرى تتعلق بتحسين اللفظ، ومراعاة المناسبة فيه.

ورعاية المناسبة تقضي في بعض الأحيان بأن يجري الكلام على مخالفة ظاهر القياس. والقياس

في هذه الآية يقضي بأن يجري الكلام على (الرَّكْعِ السَّجْدِ) كما في آية الفتح لأن الموصوف باللغظين ذات واحدة، هي المصلون. لكن النظم القرآني خالف رِغَايَةً للفاصلة من حيث الإيقاع الصوتي لتكون كجاراتها من الفواصل محتومة بحرف قبله حرف مدّ. وتلك ميزة فنية في الأسلوب القرآني، بحيث تأتي اللفظة لتؤدي معنى في السياق، وتؤدي في نفس الوقت تناسباً في الإيقاع.⁽⁵³⁾

03. أشداء وشداد: تقدم ذكر هذين الجمعين في إرادة تخصيص معنى المفرد أيضاً. ولكن يضاف إلى ذلك سبب آخر يلاحظ في الاستعمال القرآني للفظ "أشداء" دون "شداد"، وهو المواءمة اللفظية لكلمة مجاورة تكوّن معها تقابلاً دلالياً كذلك، وذلك في قوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾⁽⁵⁴⁾؛ فالمواءمة اللفظية قائمة بين قافيتي الصفتين المشبهتين "أشداء ورحماء"، وبينها مقابلة معنوية لا تكون بين شداد ورحماء؛ لأن "شداد" صفة جسمية، وليست معنوية مثل "رحماء". قال ابن عاشور: «أشداء: جمع شديد، وهو الموصوف بالشدة المعنوية وهي صلابة المعاملة وقساوتها»⁽⁵⁵⁾

(6) التفرقة بين العاقل وغيره:

يستخدم القرآن جمعي السلامة والتكسير إرادة العاقل بالأول وغير العاقل بالثاني، ويبدو ذلك من المثالين التاليين:

01. آخرون وآخر: جاء الجمع "آخرون" للتعبير عن العاقل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوجُوا مِنْ أَرْضِكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾⁽⁵⁶⁾، وجاء الجمع "آخر" للحديث عن غير العاقل كما في قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾⁽⁵⁷⁾.

02. خبيثات وخبائث: ورد لفظ "خبثات" في قول الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾⁽⁵⁸⁾، وتحدد معنى الخبيثات بالنساء المتصفات بالخبث؛ لأن هذه الآية مبنية على قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁵⁹⁾. وورد لفظ "الخبائث" في الآية: ﴿وَمِنْ أُمَّةٍ هُمْ أَلْبَابُ الْحَبَابِ﴾⁽⁶⁰⁾.

المراد بها المحرمات كلحم الخنزير والربا.

(7) قَصْدُ الصِّفَةِ الْمَجْرَدَةِ أَوِ الْمُبَالِغَةِ فِيهَا:

يقول علماء اللغة بأن كل زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، وتنطبق هذه القاعدة على

أوزان الكلمات الواردة في القرآن الكريم لما يتعلق الأمر بجموع الصفات المجردة و الصفات المبالغ فيها. ومن أمثلة ذلك:

01. فَبَجَّارٌ وَفَجْرَةٌ: تدل الكلمة الأولى على معنى المبالغة في صفة الفجور كما جاءت في قول الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾⁽⁶¹⁾، واستعملت كلمة "الفجرة" لإثبات مجرد الصفة، كما في قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجْرَةُ﴾⁽⁶²⁾.

02. خُشِعَ وخاشعون: جاءت كلمة "خشع" للدلالة على المبالغة في صفة الخشوع، والإمعان في الدلة كما في قول الله تعالى: ﴿خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُسْتَمِرٌّ﴾⁽⁶³⁾. وتدل كلمة "خاشعون" على إثبات صفة الخشوع، مجردة من المبالغة في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾⁽⁶⁴⁾.

خاتمة

يتأكد من استعمالات القرآن الكريم الدقة في التعبير حين اختيار ألفاظ الجموع، والوصول بها إلى تحقيق الأغراض الدلالية المتنوعة. وذلك من أسرار سموه البياني وإعجازه البلاغي. وقد لا تكون وظيفة ألفاظ الجموع ذات قيمة دلالية وحسب، ولكن موردا يستقي منه الأسلوب القرآني مادته الإيقاعية الصوتية التي تظهر فيما بين خواتم الفواصل من تجانس موسيقي.

وإنه من أراد أن يتفقه في الفروق الدلالية بين الجموع، عليه دراسة الجموع المختلفة للمفرد الواحد في سياقاتها المتنوعة ضمن الآيات العديدة التي ذكّرتُها.

ومن أهم ما يستخلص من هذه الدراسة أيضا أن صرامة المعيار التي وضعتها قواعد الصرف فيما يخص بأنواع الجموع وموازينها، لا تحافظ على هذه الصفة بكاملها أمام تنوع معاني مفردات هذه الجموع، وأمام ما تقضي به المقامات المختلفة في أساليب القرآن الكريم. - الإحالات والهوامش:

(1) سورة البقرة: 261.

(2) يوسف: 43.

(3) النور: 31.

(4) أمثال الزركشي في "البرهان"، والسيوطي في "الإتقان" من القدماء، ومن أمثال المحدثين الدكتور فاضل صالح السامرائي في كتابه "بلاغة الكلمة في التعبير القرآني"، وأحمد مختار عمر في كتابه

"دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته".

* ومن جموع الكثرة جمع يقال له صيغة منتهى الجموع.

(5) محمد إبراهيم عبادة، أسماء الجموع في القرآن الكريم، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1988، ص7-8.
 (6) إذا قصدوا تكسير مكسر نظروا إلى ما يشاكله من الأحاد، فيكسر بمثل تكسيره ؛ كقولهم في أسورة أساور، وفي أسرى أسارى شبهوها بأجرّة أجاره، وأسود أساود (نوع أسود اللون من الحيات)...
 ينظر: شذا العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد الحملاوي، دار الكيان للطباعة والنشر، الرياض

السعودية، د.ط، د.ت، ص. 169.

(7) البقرة:243.

(8) آل عمران:124.

(9) القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط1، 2006، 210/4.

(10) الكهفك:10.

(11) الكهف:13.

(12) الكهف:23.

(13) يوسف:62.

(15) الأنفال:67.

(16) البقرة:85.

(17) أحمد مختار عمر، دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2001، ص208-209.

(18) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، 78/1.

(19) يوسف:43.

(20) البقرة:261.

(21) سبأ:37.

(22) العنكبوت:58.

(23) الألوسي (شهاب الدين البغدادي)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، 149/22.

(24) المائدة:45.

(25) الغاشية:12.

- (26) المائة:83.
- (27) الحجر:45.
- (28) أحمد مختار عمر، دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، ص214.
- (29) الفتح:29.
- (30) التحريم:06.
- (31) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 95/21.
- (32) التكوير:7.
- (33) الإسراء:25.
- (34) هود:31.
- (35) ورد الجمع "أنفس" في القرآن الكريم 153 مرة، بينما ورد الجمع "نفوس" مرتين.
- (36)9 البقرة:44.
- (37) الحجرات:36.
- (38) النساء:09.
- (39) البقرة:266.
- (40) التوبة:91.
- (41) إبراهيم:21.
- (42) القصص:23.
- (43) وراعي الماشية: حافظها، صفةً غالبية غلبة الاسم، والجمع رُعاةً مثل قاضي وقُضاةٍ، ورعاةً مثل جائعٍ وجِياعٍ... وليس في الكلام اسم على فاعل يَعْتَوِرُ عليه فَعَلَةٌ وِفْعَالٌ إلا هذا.
- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 1676/17.
- (44) المؤمنون:08.
- (45) الزمَر:73.
- (46) الحجر:22.
- (47) آل عمران:181.
- (48) البقرة:61.
- (49) آل عمران:21.
- (50) محمود بن حمزة الكرماني، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، د.ط، د.ت، ص75.

- (51) الفتح: 29.
- (52) البقرة: 125.
- (53) ينظر: صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان القاهرة، ط1، 1995، ص84.
- (54) الفتح: 29.
- (55) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط، 26، 1984/204.
- (56) التوبة: 102.
- (57) البقرة: 184.
- (58) النور: 26.
- (59) النور: 3. ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 185/15.
- (60) الأعراف: 157.
- (61) ص: 28.
- (62) عبس: 42.
- (63) القمر: 07.
- (64) المؤمنون: 1-2.

Les termes concernant le pluriel Une étude de la sémantique dans la langue du Coran

Lakhdar SADANI (✉)(✉✉)

Résumé:

Ce sujet traite l'un des aspects miraculeux de la langue du Coran, à savoir l'utilisation appropriée des termes concernant le pluriel, si bien qu'il diversifie la méthode coranique dans l'utilisation à des fins liées strictement à l'expression du nombre (peu ou beaucoup), ou à des fins au-delà du numérique en visant d'autres sens dont le contexte joue un rôle clé dans l'identification ou la dénomination, telle que l'attribution de la signification du singulier, le sens général ou privé, le sens de la valeur nominale ou descriptive, la distinction entre l'humain et le non humain, et parfois le côté harmonieux et musical du parlé.

* Maître-Assistant (A) – Département de Langue et littérature arabe – Faculté des lettres et de langues - Université de Batna – Algérie.

** Doctorant au Département de Langue et littérature arabe – Faculté des lettres et de langues - Université de Batna – Algérie.